بعد الظهيرة

ادريـــس الخـــوري

بـانـوراما

في الواقع لم يكن لهم خيار آخر لان ينتقلوا الى مكان آخر : فهذا المكان نفسه ، رغم عريه ، بعيد عن المدينة ، وعن عيون المدينة . كانوا قابعين داخل حفر، صخرية وعاطين ظهورهم للشمس الحارة فلا ترى الا رؤوسهم المشعثـــة .

عن يسارهم ممر حجر ي‌متهدم شاقا صخورا ونتوءات يقف عليه بعض الاطفال شبه عراة ، ينظرون بفرح بدىء الى المعرض البحرى الطبيعـــى فيما زملاؤهم يسبحون ويصرخون . شهقـــات واستغاثات وهمية ، سب ، صراخ يسمع من بعيد، فرح طفولى لا يوازيه شىء آخر ، اليوم يوم احـــد الشمس تحتل المدينة منذ الصباح الباكـــر .

هنا البحـــر البحر بساط ازرق متمـــوج لجسد امـــرأة بورجوازيـــة متخمة ، البحر يغرى الاطفال والفتيان بالارتماء فى احضانه دون خشيـــة الصخور والنتواءات المرئية وغير المرئية المد يجىء ويذهب والعالم يحتفل بنفسه هذا الزوال .

كـــنـــت انظـــر ...

بعيدا عنهم ايضا ، اطفال شبه عراة منشورون فرق الصخـــور الســـوداء المسننة والشمس تشوى جلودهم . كانوا يلمعون مثل احذية يوم الاحد : تنعكس الشمس على اجسامهم الهزيلة من فرط سوء التغذية ويتكومـــون على نفوسهم مثل السردين ! ثم يغيرون مـــن وضعهـــم فيتسلقـــون على بطونهم وظهورهم الى الشمس، وحين يتعبون يقومون صارخين مثل هنود حمر فى فيلم ويسترن ويرتمون بفرح فى حوض البحـــر : صـــاخ، ســـب ، استغاثات وهميـــة ممزوجة بلـــذة خاصـــة ، كانوا جائعين ...

عن يمين الجماعة عائلة مقرنصة تنظر بسعادة وبـــلادة الى البحر . البحر قريب جدا منهم وامواجه قادمة مثل خيول بيضاء وسمـــراء فى يـــوم لفانطازيـــا مشهود (وعندما يطلق الفرسان نيران بنادقهم ، تتكسر الامواج

عند حافة الصخور ثم تستقر فى حفر صغيرة) آنذاك يعود الماء الى جزره ليتجمع مويجات صغيرة يدفعها تيار قادم من أعماق البحر بعنف ليوزعهـــا هنا وهناك فى المنطقة الصخريـــة .

من بعيد .. من بعيد يبدو صياد قادم يشق الموج والصخور متجها الى مكان آخر اكثر عمقا ، فيما الامواج تتحلق حول ركبتيه الماريتـــين مثـــل كلاب الصيد . كانت الامواج تضرب ساقيه وركبتيه ومؤخرته وكان لا يبالى بمـــذلـــك .

المدينة فوق، وهم تحت : من فوق يبدون نقطا صغيرة مزروعـــة فى لصخور ، ومن تحت، حين يرفعون أعينهم مالى قمة الجبل العالى ، يحسون نشوة غريبة ولذيذة : لقد قرروا هذا الزوال ، أن يعزلوا أنفسهم نهائيا عن لعالم وان يتبادلوا الانخاب على مرأى من العالم .

قال الفتى بصوت عال : ما أجمل ان يعمل المرء شيئا ذاتيا فى الهواء لطلـــق !

وحـــده البحر يهدر ولا أحد يجيبـــه ، كان البحر فى حالة مد قوى ، حتى أن الاطفال أخذوا يتراجعون نحو حوضهم القريب من الصخور ، وهكذا فقد كانت الجماعة غير مبالية ، هى الاخرى ، الا بنفسها ، البحر من ورائهم والمدينة أمامهم وليس عليهم والله الا المكوث هنا فى هذه الحفرة الصخرية حتى يختفى قرص الشمس وحتى يهبط الليل الطويل .

الفتـــى والبحـــــر

هـــا هى الامواج تتكسر قربهم ثم تتكون من جديد لتتكسر من جديد قربهم ، الشمس حارة جدا ومع ذلك لم تكلف الجماعة نفسها عناء الانسلاخ عن ثيابها التى أصبحت مبللة .

وحده الفتى نصف عار يتحدى الشمس بظهره ويدفع الزجاجة الطويلة المليئة بذلك السائل الاحمر ويقول بصوت عال ـــ واع ... ـــ ، يصب لنفسه كاسا ويسب اشخاصا غير موجودين ، وعند ما يفعل ذلك يفعل بعصبية ، ولان شعره الغزير كان ينسدل على جبينه المليء بالعرق الغزير ، يـــرفع رأسه مثل حصان حرون فيرجع الشعر الغزير الى الوراء ، آه ايهـــا البحر، قال الفتى سوف أعوم فيك بعد برهة وليكن ما يكون . يفرغ كاسه من جوفه ويصب كاسا آخر ويناولها لاحد الجماعة .

أراد الفتى أن يسجل انتصارا على نفسه ، وهكذا طلب من زميلـــه الاسراع فى شرب الكأس ، أعيد للفتى الكأس ، وبدا الفتى يهبط شيئـــا الى القاع ، لكن الرأس بدا ينتفخ فوقع انفصال ما بين الرأس والجســـد . كأن الرأس يوحى باشياء غامضة ، يخرجها الفم ثم تترجمها يداه اللتـــان بدأتا تلوحان فى الهواء الطلسق .

يصرخ الفتى بأعلى صوته : ـــ واع .. ـــ ، وقال الفتى كذلك هـــذه

على حساب تلك ، وأفرغ ما بقى فى الكأس فى جوفه ، ثم اشتعل الرأس وقال ما أحلى أن يفعل المرء شيئا ذاتيا فى الهواء الطلق !

تنظر الجماعة الى الفتى دون أن تتوقع ماذا سيحدث بالضبط . فى البداية رأت الجماعة أن الامر جد عادى باعتبار أن ما هو مشترك بينهما هو زجاجة لتر حمراء فقط ، لكن الفتى صرخ فى وجوههم : أنا الذى أديت الثمن ، ثم قام وبقى واقفا وسط حفرته . كان يتمايل ، الى الامام ، الى الخلف ، شمالا ، جنوبا ، صراخ سبب بصوت عال ، ماذا تردون : دعونى وحدى ، أنا الذى أديت الثمن (كان زملاؤه ينظرون اليه بصمت ويبتسمون ، ظهورهم الى الشمس ووجوههم الى الجبل . بقى الفتى واقفا يتمايل كقصبة وسط الريح والقنينة فى يده اليسرى والكأس فى يده اليمنى والبحر من أمامه والمدينة وراءه وزملاؤه موجودون وغير موجودين بالنسبة اليه)

ـ لا، لا، أريد أن أعوم فى البحر

ـ انك غير واع ، اجلس .

ـ لا ، لا ،...

نظر الفتى الى زميله نظرة شزراء وقال له هل تريد كأسا آخر ؟

ـ لا .

المد والجزر

غطس الفتى نفسه فى حفرته وبقى يوزع شتائمه كالرصاص ! المدينة فوق ، وهم تحت : نقطة صغيرة مزروعة داخل حفرة صخرية . البحر يتطاول على الصخور فيتجاوزها ويرش رذاذه على ظهور الجماعة . كأن الاطفال قد أزدادوا انتشارا أكثر من السابق حين سمعوا صراخ الفتى من بعيد . لم يكن الفتى يعى ما يفعل ، لكنه كان سعيدا لانه يشرب الخمر . فى البداية اعتبروا أن صراخه مجرد مزاح بينه وبين أصدقائه ، لكن صراخه استرسل بشكل ملفت للانظار .

نظر الفتى اليهم وقام مرة أخرى من وسط حفرته ولم يبق فى القنينة الا القليل ، ردد الاطفال واع .. خرج الفتى من صخرته واتجه الى الصخور المسننة ، التفت اليه الاصدقاء وانتظروا عودته ، ينعل دين ... قال أحدهم للاخر اتبعه ، سوف يفعل شيئا ما ، رد الاخر سيعود ولا يمكن أن يغادرنا، ظل الفتى يتمايل ويسقط على الصخور المسننة ثم يقوم متثاقلا ، البحر يهدر والاطفال ينظرون اليه باستغراب ، ولى الفتى وجهته نحو الموج زحف اليه ، كأن الاصدقاء ينظرون اليه ، اقترب من الماء ورمى بنفسه فيه ، المد يجره اليه وهو مرتخ كما لو كان مخدرا ، تطوع أحدهم وذهب اليه وامسكه من ذراعه الايمن وأخذ يجره بعنف الى الشاطىء ، قا ل الفتى دعنى ، صرخ الفتى دعنى ، وبقى متشبثا بصخرة صغيرة ، وجاء زميل آخر وساعده على جر ه الى الشاطىء ، وبقى الفتى متدليا الى أن

أعيد الى صخرته ، تحلق الاطفال حولهم ، وغادرت العائلة السعيدة مكانها.

فى هذه اللحظة، حمل الفتى على أربعة وسأل أين زجاجتى . أعطيت له زجاجته تم تخلص منهم وطوح بها فوق الصخور فتناثرت اشلاؤها ، كان الفتى ينهار وهجم عليه أحد أصدقائه ولوى له ذراعيه وراء ظهره مثل شرطى وأوقفه بعنف حتى ارتج الفتى تم أفرغ فيه قميصه وبدأ الفتى يبكى ... لماذا تفعلون معى العنف مثل الشرطة ؟ لماذا ؟ وفيما الاطفال ينظرون كان الفتى قد أضحى فرجة عمومية .

وضعوه وسطهم ، وبدأوا يصعدون به نحو الجبل العالى ، وبين لحظة وأخرى يقول الفتى أنتم مثل الشرطة التى اعتقلتنى ذات يوم .

الشاهد الوحيد

مر على خروجه من السجن يوم كامل . حين عاد البارحة الى منزله وجد أمه فى أحضان جندى عادى . لقد أعتقل فى مظاهرة طلابية وبقى فى السجن مدة طويلة ثم اطلق سراحه بدون محاكمة . كان نشيطا جدا فى ثانويته . تزعم كثيرا من مشاريع الاضراب .

طيلة اعتقاله لم ير الشمس ولم ير البحر ، ولم يشم وردة ولا رأى وجه فتاة . كان قابعا فى زنزانة مظلمة : لا يقرأ الجرائد لان الجرائد ممنوعة، لا يقرأ الكتب لان الكتب ممنوعة ، فقط كان يلعب الكارطا ويأكل أكلا سيئا.

هذه اللحظة هى لحظة فرح أكثر منها لحظة حزن ، أنا أعرفه منذ مدة ، له عشيقته وله أصدقاؤه وحين خرج من السجن ، أراد أن يحتفل بنفسه .